تأثير اللهجة في نبر التلاوة

د.مصطفى مسيردي
جامعة سيدي بلعباس

اللهجة في الأصل هي لغة طرأت عليها تغيرات في بعض بنائها اللفظي والدلالي، والفكري أيضا، وقد يصيبها من التغير ما ينأى بها عن اللغة الأم، وربما استقام لها الحال بعد دهر من الزمان لترقى إلى لغة الأدب والتأريخ والعلم.

وللهجات تأثيرات ظاهرة وأخرى خفية في اللغات الأدبية[1]. وقد دب إلى عربية القرآن في هذا العصر خاصة عادات لهجية استحكم أمرها في ألسنة المثقفين وغير المثقفين حتى غدا العامي فصيحا أو في صورة الفصيح، والفصيح غريبا مستهجنا. وهذه المشكلة على خطروتها لا تخفى على حماة اللغة المدافعين عنها، وقد تقاسم أعباءها - دراسةً وبحثاً- العلماء قديما وحديثا، وحاولوا بيانها وفضحها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ويشمل هذا التأثير فروع اللغة المختلفة من الأصوات والمفردات والتراكيب والدلالات.

والقراء من العلماء الذين تنبهوا إلى عدوى اللهجات وداءها الذي يشوب الأداء الصحيح للكلام سواء في التلاوة أو غير التلاوة. ولهم في هذا المجال تنبيهات فذة وملاحظات دقيقة تنم عن سلامة الطبع وحسن الذوق في اللغة والأصوات؛ فقد دأب كثير منهم - تلقيناً وتأليفا- في التنبيه على اللحون التي تشيع في الأداء بسبب تحكم اللهجات العامية،وأشار بعضهم إلى هذا التأثير إشارة عامة. قال ابن الجزري: "أصل الخلل الوارد على ألسنة القراء في هذه البلاد وما التحق بها؛ هو إطلاق التفخيمات والتغليظات على طريق ألفتها الطباعات، وتلقيت من العجم، واعتادتها النبط، واكتسبتها بعض العرب"[2]. وقال ابن قتيبة: "وقد كان الناس يقرءون بلغاتهم كما أعلمتك؛ ثم خلف قوم بعد قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة ولا عِلمُ التكلف، فهفوا في كثير من الحروف وزلوا، وقرؤوا بالشاذ وأخلوا"[3].

إن تغير موضع النبر الصحيح هو من جملة آثار العادات اللهجية في الكلام العربي؛ سواء على ألسنة القراء وغيرهم؛ لأن التركيب - والنبر منه- أكثرُ عرضة للتغير من أفراد اللغة. وقد نبه القراء إلى ما يقرب من هذا، كقول ابن الجزَري: "فإذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدَته، موفيا حقّه، فليُعمل نفسه بإحكام حالة التّركيب، لأنّه ينشأ عن التّركيب ما لم يكن حالة الإفراد"[4]. فهذه إشارة عامة إلى التغيرات التي تختص بحالة التركيب، وليس فيها ذكر صريح للنبر وتغير موضعه، ولكن دلالته عليه ضمنية؛ لأن انتظام النبرات في القراءة والأداء هو لحن اللغة نفسها في طبيعتها لا لحن القراءة في الصناعة، وذلك دليل إحكام القراءة على أحسن وجوهها في عذوبة المنطق وفصاحة المخرج[5].

ومن أمثلة تأثير اللهجة في موضع النبر ما نسمعه في تلاوات كثير من القراء المغاربة[6] الذين استحكمت فيهم العادات اللهجية، فلا يلفظون بلفظ من القرآن والعربية إلا وفيه شيء من طباع لهجاتهم ومزاجها النطقي. وهم بهذه الحال يختلفون عن غيرهم من قراء الأمصار في القراءة من حيث النبرات والتنغيمات موضعا وكمًّا، لا من حيث أداء الحروف وتحقيق الصفات، ومردّ هذا الاختلاف إلى تحكم اللهجات المحلية. والشائع المسموع في لهجاتنا المغاربية على كثرتها واختلافها هو نبرُ آخرِ مقطع من الكلمة في غالب الأحوال؛ ولذلك نحس في قراءة القارئ منهم اختلالا في الأداء بسبب وضع النبر في غير موضعه الصحيح.

وقد نبه بعض مشاهير قراء العصر إلى هذا اللحن الأدائي وحذروا منه، ونعتوه بسوء نبرة الحرف الأخير من الكلمة[7]. وهذا الاختلال لا يختص بالأداء فقط، ولا يكون من جراء تأثير اللهجة وحدها، بل هو عام في الكلام واللغة، وشرط تحققه هو اختلاف نُظُم النطق في الأصوات والمقاطع وهيئة التركيب. فإذا تحدث متكلم بلغة غير لغته الأصلية ولم يكن متقنا لها؛ ظهر عليه التكلف في النطق بها، وعسُر عليه الممازجة بين أصواتها ومقاطعها، وشابها من لسانه ما اعتاده من نطقه، سواء أكان ما يتكلمه لغة أم لهجة. ومن شواهد ذلك عند المتقدمين ما ذكره ابن جني عن أبي حاتم السجستاني حيث قال: "قرأ على أعرابي بالحرم {طِيبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} [الرعد:29]، فقلت طُوبَى، فقال طِيبَى، فأعَدْت فقلت طوبَى، فقال

طِيبَى؛ فلما طال علي قلت: طُو طُو، قال: طِي طِي". قال ابن جني معلقاً: "أفلا ترى إلى هذا الأعرابي وأنت تعتقده جافيا كزّا لا دمثا ولا طيعا؛ كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء فلم يؤثّر فيه التلقين، ولا ثنى طبعَه عن التماس الخفة هزّ ولا تمرين، وما ظنك به إذا خُلّى مع سَوْمه وتساند إلى سليقّيته ونجْره"[8].

وقال إبراهيم أنيس: "نطق اللغة لا يكون صحيحا إلا إذا روعي فيه موضع النبر؛ فالفرنسي حين ينطق بالإنكليزية يضغط على المقطع الأخير من الكلمات متأثرا بعاداته اللغوية، فتنفر الأذن الإنكليزية من نطق تشوبه لهجة أجنبية قد تؤدي إلى اضطراب في الفهم، لأن بعض الكلمات الإنكليزية يختلف استعمالها باختلاف موضع النبر فيها"[9].

ومن أمثلة تغير النبر بتأثير اللهجة:

- قراءتُهم لقوله تعالى: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا} [آل عمران:8]؛ بالنبر على المقطع الثالث "نا" من كلمة "ربنا"، والأصح أن يكون على المقطع الثاني "بَـ"، كما هو المسموع في أداء القراء المعتمدين من أمثال الشيخ محمود خليل الحصري، والشيخ محمد صديق المنشاوي، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد رحمهم الله تعالى، والشيخ علي عبدالرحمن الحذيفي وغيرهم كثير؛ ولأن تغيير موضع النبر في هذا المثال يؤدي إلى عدم إعطاء صوت الباء حقه من الإدغام التام باختلاس حركته والإسراع في النطق به. فالكلمة مؤلفة من ثلاثة مقاطع:

[رَ ب / بَ / نَ ّ] = [ص ح ص / ص ح / ص ح ح]

والظاهر في هذه الحال أنهم يؤثرون نبر المقطع الطويل المفتوح لا سيما إذا وقع في آخر الكلمة.

- وشبيه بهذا أيضا قراءتهم كلمة {الذي} حيثما وردت في القرآن الكريم بعَدَمِ إتمام حركة اللام والتجوز في إدغامها، مع تمطيط حركة الذال قدراً زائداً عن المطلوب، وهو أمر معلوم عند من خالط المغاربة وسمعهم.

- وكذلك قراءتهم {يا أيّها} حيثما وردت في القرآن الكريم؛ بترك نبر الياء المشددة مع تمطيط زائد في حركة الهاء، فيضطرون بذلك إلى نبر حركتها موصولة بما بعدها، أي بلام التعريف الساكنة كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ} [يوسف:78]، أو المدغمة في حرف بعدها كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ} [المؤمنون:51].

والملاحظ أيضا في كلام المغاربة عامة تركهم نبر الحرف المشدد، خاصة إذا كان التشديد في آخر الكلمة، مثل: حقيقيّ، مكيّ، جزائريّ، مغاربيّ؛ وصورته أن يخفف التشديد، فينتقل النبر عن الياء إلى مقطع آخر من هذه الأمثلة. توضيح:

المثال	موضع النبر مع التشديد	موضع النبر مع ترك التشديد
حقيقيّ	حقيـ (قِيٌّ)	حـ(قِيـ) قِي
مكيّ	مكْ (كِيٌّ)	(مَكْ) كِي
جزائريّ	جزائـ (رِيٌّ)	جـ (زَا) ئـرِي
مغاربيّ	مغار (بِيٌّ)	مـ (غَا) رِبي

ويقع هذا التغير في الأداء ولا يكون من قبيل اللحن، بل لاختلاف وردت به الروايات صحيحة. ومثاله ما جاء من تخفيف الياء المشددة في كلمة (أمانيّ) في مواضع من القرآن الكريم:

- قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} [البقرة:78]،
- وقوله تعالى: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [البقرة:111]،
- وقوله تعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ} [النساء:123]،
- وقوله تعالى: {وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ} [الحديد:14]؛

خففها أبو جعفر مع إسكان الياء المرفوعة والمخفوضة من ذلك، وبكسر الهاء في {أَمَانِيهِمْ}، وقرأ الباقون بتشديد الياء وإظهار إعرابه[10].

والأماني جمع أمنية، تجمع على أفاعيل بتشديد الياء، وعلى أفاعل بتخفيفها[11]، وهي في الوزن مثل: مفاتيح ومفاتح، وأثافٍّ وأثاف، وأضاحيّ وأضاح[12]. وبناء على هذا فإن النبر في كلمة (أماني) يتغير موضعه - وقْفاً- من حال التشديد إلى حال التخفيف. فالنبر في أفاعيل واقع على (عِيلْ)، بخلاف صيغة أفاعل فإن النبر فيها واقع على (فا). (توضيح)

المثال	موضع النبر مع التشديد (وقفا)	موضع النبر مع ترك التشديد (وقفا)
أماني	أفاعيل = المقطع (عيل) = أما(نِيْ)	أفاعل = المقطع (فا) = أ(ما)نِي

وقد يقع العكس - وهو تشديد المخفف- كما في كلمة "آفة" وتخفيفها، فالعامة يقولون: آفّة، والصواب تخفيفها. يقال: "طعامٌ مَؤُوفٌ، مثال مَخُوفٌ، إذا أصابته آفَةٌ"[13]. قال طرفة بن العبد (الرمل):

وَلَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أَنَّنَاآفَةُ الجُزْرِ مَسَامِيحٌ يُسُرْ[14]

ويقول بعضهم في صحفيّ (بتشديد الياء نسبة إلى الصحف): صُحُفِي، بنبر المقطع الأول [صُ] وترك تشديد الياء. وهو خطأ كما يظهر، لأنه يلتبس بالمشدد المراد منه النسبة، ومثله كلمة: كتبي. قال الداني في أرجوزته:

وَالعِلْمُ لاَ تَأْخُذْهُ عَنْ صُحُفِيّ وَلاَ حُرُوفُ الذِّكْرِ عَنْ كُتُبِيّ[15]

أراد ألا يؤخذ الأداء عمن تعلم من الصحف والكتب؛ فلو تركنا تشديد الياء من كلمتي "صحفي" و"كتبي" للزم منه نبر أولهما؛ وهما الصاد والكاف؛ فينقلب بذلك معنى البيت، وتصير الياء فيهما للمتكلم لا للنسب. وهذا ظاهر لأن الوقف يخفى فيه المشدّد إذا كان آخرا[16].

ولابن جني كلام نفيس في تغير موضع النبر بسبب الاستعمال اللهجي، وإن لم يكن صريحا في كلامه، بل يفهم بالإشارة والأمثلة التي ذكرها في بابي مطل الحركات والحروف. والمَطْلُ لغة هو المَدُّ؛ يقال: مَطَل الحبلَ وغيره يَمْطُله مَطْلاً فامْطَلَّ[17]، واصطلاحا: مطل الحركة هو إشباعها حتى تصير مدا، ومطل الحرف هو الإفراط في مد حرف اللين، ومطْل الصوت مدُّه وتراخيه والإبعاد فيه[18]. والنبر؛ من حيث هو ضغط على مقطع من مقاطع الكلمة؛ إنما ينتج في بعض حالاته عن زيادة طول المقطع الناشئة عن المد، سواء أكان المدّ بمطل الحركة أم بمطل الحرف. أما مطل الحركة فهو أن ينشأ عن الحركة حرف من جنسها، فتنشأ بعد الفتحة الألفُ، وبعد الكسرة الياءُ، وبعد الضمة الواوُ[19]. ويقتضي المطل في الحركات أمرين:

1. تغير البناء الصرفي للكلمة.

2. تغير موضع النبر الرئيس بانتقاله من مقطع إلى آخر.

وعلة المطل عند ابن جني راجعة إلى أمرين: الأول استعمال لهجي أو تولد لغة ثانية في اللفظ، والثاني ضرورة شعرية. فمن العلة الأولى قول ابن هرمة يرثي ابنه:

فَأَنْتَ مِنَ الغَوَائِلِ حِينَ تَرْمِي وَمَنْ ذَمَّ الرِّجَالَ بِمُنْتَزَاحِ

أراد: بمنتزح: مفتعَل من النازح. والفرق بين لفظي "منتزح" و"منتزاح" هو تغير موضع النبر، لأن النبر في اللفظ الأول واقع على المقطع "تَ"، أما الثاني فالنبر فيه واقع على المقطع "زا" لطوله. ومثله قول عنترة:

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَي غَضُوبٍ جَسْرَةٍ .....

أراد ينبع، فأشبع الفتحة، فأنشأ عنها ألِفا. وقال الأصمعي: يقال انباع الشجاع ينباع انبياعا، إذا انخرط بين الصفّين ماضيا[20]. ومنه ما حكاه الفرّاء عنهم: أكلت لحمًا شاةٍ، أي:

لحمَ شاة، فمطل الفتحة، فأنشأ عنها ألفا. ومن إشباع الكسرة ومطلها ما جاء عنهم من الصياريف والمطافيل والجلاعيد. كقول أبي النجم:

..... مِنْهَا المَطَافِيلُ وَغَيْرُ المُطْفِلِ

قال ابن جني: "وأجود من ذلك قول الهذلي:

..... جَنَى النَّحْلِ فِي أَلْبَانِ عُوذٍ مَطَافِلِ"[21]

فدلت مفاضلة ابن جني بين لفظي المطافل والمطافيل على أن المفضول - وهو المطافيل- استعمال لهجي بسبب ما فيه من المطل، وهذا كثير في اللهجات، حيث تتولد من الألفاظ الفصيحة ألفاظ تختلف عنها بطول في أحد مقاطعها بسبب النبر. ولذلك استثنى ابن جني ما ظاهره أن فيه مطلا وليس كذلك، لكون علة إشباع الحركة فيه تصيريفة وليست لهجية، مثل مطاليق جمع منطلق، ومطيليق تصغير منطلق[22]، لأن الياء عوض من النون المحذوفة فيهما وليست مطلا، والعلة التصريفية في المثالين هي الجمع والتصغير، وكذلك الحال في لفظ أماني تشديدا وتخفيفا. وأما المطل لأجل الضرورة فذكر فيه قوله[23]:

وَأَنَّنِي حَيْثُ مَا يَشْرِي الهَوَى بَصَرِي مِنْ حَيْثُ مَا سَلَكُوا أَدْنُو فَأَنْظُورُ

لأن الشاعر قصد إقامة الوزن بمطل الضمة، وهذا يقتضي انتقال النبر من المقطع الأول [أنا] من كلمة "أنظر" إلى المقطع ما قبل الأخير، وهو "ظو" من كلمة "أنظور".

ومن شواهد المطل في الأداء ما ورد في بعض القراءات الشاذة كقراءة الزهري، والحسن، وابن محيصن، وأبي الجوزاء: {تَبْيَاضُّ}، و{تَسْوَادُّ} بالمد فيهما من قول الله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران:106]، وإشباع الفتحة في هاتين الكلمتين لغة جائزة[24].

الإحالات:

1. ينظر مشكلات الهمزة العربية، رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، 1996، ص36.

2. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تحقيق علي محمد الضباع، المطبعة التجارية، د.ت.ط، ج1ص215.

3. مشكل تأويل القرآن لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث بالقاهرة، ط2، 1973، ص58.

4. النشر لابن الجزري 215/1، وينظر: زاد المقرئين أثناء تلاوة الكتاب المبين، جمال إبراهيم قرش، دار الضياء طنطا، ط2، 1423، ج1ص112 وما بعدها.

5. ينظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دارا لكتب العلمية، ط1، 2000، ج2ص49.

6. المراد بالمغاربة هم سكان المغرب العربي، لأن أداءهم للقرآن الكريم يختلف عن أداء غيرهم من قراء البقاع الإسلامية والعربية، خاصة في النبرات والتنغيمات.

7. ينظر: زاد المقرئين جمال إبراهيم القرش ج1ص175 وما بعدها.

8. الخصائص لابن جني، تحقيق عبد الحميد هنداوي، عالم الكتب العلمية، ط2، 2003، ج1ص120.

9. ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الاجلو المصرية، 1999، ص139.

10. ينظر: تقريب النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، دار الحديث بالقاهرة، 2004، ص173. الغاية في القراءات العشر، ابن مهران، دار الكتب العلمية، ط1، 2007، ص41.

11. ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد البنا، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب بيروت ومكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، ط1، 1987، ج1ص398- 399، 520، ج2ص521.

12. لسان العرب مادة (مني)

13. كتاب الجراثيم، ابن قتيبة، محمد جاسم الحميدي، منشورات وزارة الثقافة بسوريا، 1997، ج1ص327.

14. ديوان طرفة ص52.

15. الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرواة وأصول القراءات وعقد الديانات بالتجويد والدلالات، أبو عمرو الداني، تحقيق محمد بن مجقان الجزائري، دار المغني للنشر والتوزيع بالرياض، ط1، 1999، ص170.

16. الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب القيسي، أحمد حسن فرحات، دار عمار عمان الأردن، ط3، 1996، ص179.

17. لسان العرب مادة (مطل)

18. . ينظر: الخصائص لابن جني، ج3ص155.

19. السابق ج3ص121.

20. السابق ج3ص121- 122.

21. السابق ج3ص123.

22. ينظر: المقتضب للمبرد ج1ص110. الهمع للسيوطي ج3ص383.

23. ينظر: الخصائص 124/3.

24. ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، زاد المسير لابن الجوزي، وغيرهما في تفسير هذه الآية.